نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس التاسع

عناصر المحاضرة:

➊إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله.

➋إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

➌ إغراءات قريش للنبي ﷺ.

➍ طلب الآيات والمعجزات.

رغم أن رسول -صلى الله عليه وسلم- عبد الله ورسوله، ونبيه ومصطفاه، وحبيبه وخليله، وجعله سيد ولد آدم، واتخذه الله خليلاً، واجتباه وفضَّله على الأنبياء والمرسلين -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك كله لما قام صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، يدعو إلى عبادة الله وحده، ابتلاه، فكاد الناس يكونون عليه لِبَدًا، وتحمل صلى الله عليه وسلم كل ما أصابه من ابتلاء شديد ومحنة، أثناء دعوته إلى الله -عز وجل.-

ماذا أصابنا في ذات الله؟ ماذا قدمنا من أجل دين الله؟ إننا نعيش اليوم في رغد ونعم ولله الحمد، فكم نبذل من جهدنا ووقتنا ومالنا ونفسنا من أجل ديننا، من أجل الله -عز وجل-؟

نعم الله -تعالى- قادر على أن ينصر دينه، لكن لا بد أن نفعل الأسباب كما فعل أحب الخلق لله محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- الأسباب، فعلى الأمة أن تفعل الأسباب، ثم ينتظرون النصر والتمكين، كي ينزل عليهم من السماء، النصر لا ينال براحة الأبدان ولا بالعجز ولا بالكسل! إنما ينال بفعل الأسباب.

فالقضية ليست قضية خوارق ومعجزات، ولكنها قضية أسباب ومسببات، فمن بذل الأسباب أدرك النتائج، ومن فوت الأسباب فوت النتائج! فإذا لم يبذل المؤمنون الأسباب، ولم يوفوا بالشروط، فاتهم الظفر والتمكين.

لن يحصل الظفر والتمكين إلا بفعل الأسباب، التي نص الله –تعالى- عليها في القرآن :(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [النور: 55].

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله:

في وسط هذا الجو المشحون بالظلم والطغيان من كفار قريش أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو عم الرسول ﷺ، وأخوه من الرضاعة، وكان أسن من الرسول ﷺ بسنتين.

وسبب إسلامه في البداية حمية للرسول ﷺ، فقد مر أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه ببعض ما يكره، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم انصرف أبو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، ثم أقبل حمزة رضي الله عنه من صيدٍ، متوشحاً سيفه، فأخبرته أمة ابن جدعان بما سمعت،فاحتمل حمزة الغضب، لِمَا أراد الله به من الكرامة،فخرج يسعى ليوقع بأبي جهل ما يكره، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه،وقام على رأس أبي جهل، فرفع القوس، وضربه به، فشجه شجة منكرة،ثم قال لأبي جهل: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول، رُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت،فقام رجل من بني مخزوم لنصرة أبي جهل، فمنعهم أبو جهل، وقال لهم: دعوا أبا عمارة، فو الله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً،وعاد حمزة رضي الله عنه إلى بيته، وثبته الله على دينه، فجاء إليه رسول الله ﷺ فذكَّره وبشَّره، وأنذره، فثبت الله تعالى الإيمان في قلبه،وسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلام عمه حمزة أيما سرور، وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة رضي الله عنه سيمنعه.

فسبحان الحكيم العليم الذي جعل ما يحب في باطن ما يكره الإنسان، فما فعله أبو جهل برسول الله ﷺ من الأذى كان سبباً لتحريك العصبية القبلية، وإسلام حمزة، وإذا ضعفت العصبية تطاول السفهاء على الأنبياء، والعصبية ممقوتة، لكن إذا سُخِّرت لخدمة الدين، وإعلاء كلمة الله، وردع الظالمين، فهي محمودة.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام، أيد الله الإسلام والمسلمين بإسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان رجلاً معروفاً بحدة الطبع، وقوة الشكيمة.

وكان من أشد الناس عداوة للمسلمين، ونالهم منه من الأذى حتى يئسوا من إسلامه، وقد دعا رسول الله ﷺ لعمر بالهداية.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: كَانَ إِسْلَامُهُ عِزًّا ظَهَرَ بِهِ الْإِسْلَامُ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْك بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ) قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ) [الترمذي وأحمد وصححه الألباني]

أما قصة إسلام عمر بن الخطاب فقد روتها أم عبد الله بنت أبي حثمة فقالت: والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشراً علينا،فقالت: فقال: إنه لَانطلاق يا أم عبد الله، قالت: فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أرها، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى – خروجنا،قالت: فجاء عامر- وهو زوجها - من حاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورِقَّته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً لِمَا كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة والحاكم

وقد أسلم عمر بن الخطاب وهو في السادسة والعشرين من عمره، بعد أن دخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، بعد أربعين نفساً أسلموا قبله من الأحرار، ثم انتشر خبر إسلام عمر بن الخطاب في مكة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما أسلم عمر بن الخطاب قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحي. قال : فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقِل كلما رأيت ، حتى جاءه ، فقال : أما علمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رجليه، واتبعه عمر، واتبعت أبي ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر قد صبأ . قال : يقول عمر من خلفه : كذب ، ولكن قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله.قال : وثاروا إليه ، قال : فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلح - أي أعيا - فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا ،قال : فبيناهم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه جبة حبرة وقميص قومس حتى وقف عليهم(العاص بن وائل السَّهمي) ،فقال : ما شأنكم ؟قالوا : صبأ عمر بن الخطاب ، قال : فَمَه ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أخرجه أحمد في فضائل الصحابة وابن حبان.

قال عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر، ولقد رأيتُنا، وما نستطيع أن نطوف بالبيت، ونصلِّي؛ حتَّى أسلم عمر، فلمَّا أسلم؛ قاتلهم حتَّى تركونا، فصلَّينا، وطفنا. وقال أيضاً: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمةً، لقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلِّي، ونطوف بالبيت؛ حتَّى أسلم عمر، فلمَّا أسلم قاتلهم حتَّى تركونا نصلِّي، وقال صهيب بن سنان: لمَّا أسلم عمر بن الخطَّاب، ظهر الإسلام، ودعي إليه علانيةً، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطُفنا بالبيت، وانتصفنا ممَّن غلظ علينا.

ولقد صدق في عمر ـ رضي الله عنه ـ قول القائل:

أَعْنِي به الفَارُوقَ فَرَّق عَنْوةً بالسَّيْفِ بَيْنِ الكُفْرِ والإِيْمَانِ

هُوَ أَظْهَرَ الإِسْلاَمَ بَعْدَ خَفَائِهِ وَمَحَا الظَّلاَمَ وَبَاحَ بالكِتْمَانِ

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ. قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّينَ».

وعَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي حَمْزَةُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ -يَعْنِي اللَّبَنَ- حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّيِّ يَجْرِي فِي ظُفُرِي أَوْ فِي أَظْفَارِي ثُمَّ نَاوَلْتُ عُمَرَ، فَقَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ؟ قَالَ: «الْعِلْمَ».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِلاَّ مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ". قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ صحيح بخاري

وقال ابن مسعودٍ: لو وضع علم أحياء العرب في كفة الميزان، ووضع علم عمر لرجح علم عمر، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم.

فلما أسلمت هذه الجماعة القليلة، وتعلمت وذاقت طعم الإيمان، انطلقت تنشر هذه الدعوة بحكمة وموعظة حسنة، فأخذ الناس يقبلون على هذه الدعوة الإيمانية التي لا مست شغاف قلوبهم، وجاءت لتشبع جوعة نفوسهم، توحيد وإخوة، وصدق وحسن تعامل، ومكارم أخلاق، وراحة قلبية.

لقد كانت الدعوة لبيان صفاء الإسلام وجماله وروعته، وتحقيق لإنسانية الإنسان ورغبته وسعادته.

📄إغراءات قريش للنبي ﷺ:

لما رأت قريش أن الرسول ﷺ ماض في دعوته، وأن أصحابه يزيدون يوماً بعد يوم، وأن كل محاولاتها في الصد عن سبيل الله قد باءت بالفشل، فرأت أن تجرب أسلوب الإغراء بالمال، أو الجاه، أو المُلك، ظناً منهم أنه ربما يُـغري محمداً ﷺ بريق هذه العروض.

عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده :يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وعِبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعْرِض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها،قال : فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليدِ أسمعْ .»قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ،وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكا ملَّكناك علينا،وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ،وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه،فلما فرغ من قوله، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: «أفرغتَ يا أبا الوليد ؟»قال : نعم، قال : « فاسْتمع مني » قال : أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ : {حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)} [ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه،ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال ﷺ: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت

وذاك «فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال لهم: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه مُلْككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. أخرجه ابن إسحاق في السيرة والبيهقي في دلائل النبوة.

طلب الآيات والمعجزات:

لما رأت قريش أن طرق الأذى والإرهاب، وطرق الإغراء والشراء لم تفلح في كف النبي ﷺ عن دعوته، رأت أن تطلب من النبي ﷺ الخوارق والمعجزات المادية والحسية، ليعجز، ويترك دعوته، فقالوا: يا محمد، إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صِدْق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول،فقال لهم رسول الله ﷺ:«ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، « قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ،سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك ، واسأله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمس ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما أنا بفاعل ،

وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت بهذا إليكم، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيرا ً، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .« قالوا : فأسقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . قال فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل ،«قالوا : يا محمد ، فما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا،وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا، فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وهو ابن عمته ، فقال له : يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ،ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل،ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ـ أو كما قال لهـ فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك،ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ،وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

ولما دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وبلغهم رسالة ربه، قال له زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والعاص بن وائل: لو جعل معك ربك يا محمد مَلَك يحدث عنك الناس، ويُرى معك، فأنزل الله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8)][الأنعام/٨-٩]

وأنزل الله فيما سألوه لأنفسهم من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وبعث موتاهم :{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }[الرعد/٣١] .

وأنزل الله في قولهم: خذ لنفسك ما سألوه أن يأخذ لنفسه أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً:{وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (10)}[الفرقان/٧-١٠].

وأنزل الله على رسوله ﷺ مبيناً لهم أنه بشر مثله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان/٢٠] .

وأنزل الله فيما قال عبد الله بن أبي أمية:(وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (93))[الإسراء/٩٠-٩٣].

وأنزل الله في قولهم: إنما يعلمك يا محمد رجل باليمامة، يقال له الرحمن! ولن نؤمن به أبداً:{كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }[الرعد/٣٠] .

ونزل في قولهم: إنما يعلمه بشر عند المروة: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل/١٠٣] .

ومن رحمة أرحم الراحمين سبحانه أنه لم يجبهم إلى ما سألوه؛ لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك، فيعاجلهم بالعذاب، وهو القادر على كل شيء، ولأنهم كذلك لم يسألوا مسترشدين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، فاقتضت حكمة الله عدم إجابتهم،لأن سُنَّته سبحانه أنه إذا طلب قوم آية فأُجيبوا، ثم لم يؤمنوا أخذهم الله بعذاب الاستئصال، كما فعل بالأمم السابقة كعاد وثمود وغيرهم :{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }[الإسراء/٥٩] .

والله قد رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال بفضل نبيّها محمد ﷺ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين إلى قيام الساعة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء/١٠٧]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يصبح لَنَا الصَّفَا ذَهَبَةً، فَإِنْ أَصْبَحَتْ ذَهَبَةً اتَّبعناك، وعرفنا أن ما قلتَ كما قلتَ، فسأل رَبَّهُ عز وجل، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَتْ لَـهُمْ هذه الصفا ذَهَبَةً، فمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بعد ذلك عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبْهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْنا لَهُمْ أبواب التَّوْبَةِ، قَالَ: «يَا رَبِّ، لا، بل افتح لهم أبواب التَّوْبَةِ » أخرجه أحمد.

وكيف يطلب كفار قريش الآيات، وقد أنزل الله عليهم القرآن العظيم، وهو آية الآيات، وبينة البينات :{ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)}[العنكبوت/٥٠-٥٢].

قال ابن كثير في تفسير الآيات: ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلي.

كان صلى الله عليه وسلم، رغم ما كان يعامله أولئك البؤساء الأشقياء يناوئونه ويحاربونه، ويسبونه، ويلحقون به الأذى كلما أمكنهم ذلك، كان هو صلى الله عليه وسلم في مقابل ذلك كله أشد حرصًا على هدايتهم وإرشادهم، وإنقاذهم من الشرك والوثنية، وهذا هو الصبر النبوي الذي يجب أن يتربى عليه دعاة وشباب الإسلام، فلسان حاله ومقاله صلى الله عليه وسلم كلما اشتد صلفهم، وعظمت نكايتهم به صلى الله عليه وسلم" :اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ."

حتى إنه من شدة ما لقي منهم هام على وجهه حزينًا مغمومًا، وغضب الجبار -عز وجل- لنبيه ومصطفاه، وخليله: فبعث إليه ملك الجبال، فقال ملك الجبال: يا محمد! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَقَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فإِنْ شِئْتَ أَطْبَقتُ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ -والأخشبان: جبلان عظيمان حول مكة- فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بقلبه الرحيم الشفيق:"بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[خ بدء الوحي 3059].

كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هداية الناس وإرشادهم، حتى كانت نفسه الشريفة الرقيقة تكاد تتقطع من شدة الحزن إذا رأى عدم استجابتهم لنداء الإيمان، حتى كاد صلى الله عليه

وسلم يهلك نفسه من شدة الحزن والحسرة والألم على قومه، إذ لم يستجيبوا لنداء الإيمان، فخفف عنه ربه -عز وجل- بقوله :(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) [فاطر: 8].

لما رأى الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات قلب محمد -صلى الله عليه وسلم- وحزنه الشديد على صدود الناس، وعلى تهافت قلبه وحزنه لهدايتهم، ودلالتهم على الخير، جاء النداء السماوي الآخر :(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) [الكهف: 6].

يا الله، قدوتنا وصل الأمر به إلى الحزن الشديد لبعد الناس عن الإسلام، وعن دين الله، فأين نحن؟ ونحن نرى الناس، في جهالات وضلالات، والناس في عداوات وفي حروب، وبعد حقيقي عن جمال وروعة الإسلام، أفلا نقتدي بحبيبنا -صلى الله عليه وسلم-؟ لم يكن همُّ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- تحقيقَ مجدٍ سياسيٍّ، ولا الفوزَ بمنصبٍ حكوميٍّ، لم يكن همه صلى الله عليه وسلم يومًا أن يحشد الأنصار والأتباع، بل كان هدفه واضحًا جليًّا، هو: هداية الناس، وتبليغ دعوة ربه، وإنقاذ الناس الذين عبدوا غير الله من ربقة الشرك والوثنية.

وكان من أسرار نجاح دعوته العجيب هو صبره صلى الله عليه وسلم ومثابرته، وحرصه الشديد على إيصال الهداية، هدف واضح وصبر وتحمل بحسن خلق، الزوايا الثلاث لذلك المثلث الناجح: هدف واضح، وإخلاص وصدق، ودعوة للتوحيد واضحة، يستعين فيها المسلم كل لحظة من نفسه ومن شرور نفسه وهوى نفسه، ويسأل الله الصدق والإخلاص في ذلك، وفي أمره ونهيه، ثم يصبر ويتحمل أذى الناس، بخلق عظيم،هكذا هو إسلامنا، هكذا هي دعوتنا، هكذا علمنا حبيبنا -عليه الصلاة والسلام-، إنه الحب للناس، حب الخير للناس، حب الهداية للناس، مهما أساء إليك الناس، مهما قال عنك الناس، فأنت تريد بذلك وجه الله -عز وجل-، إنك تتعامل مع الله، لا تتعامل مع الناس، فاصدق مع الله، مهما قال ومهما آذاك الناس،يجب أن نتبع للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام،لنكون معهم في الدنيا على طريقتهم وهديهم ، وفي الآخرة معهم في جنات النعيم ،رزقنا الله وإياكن ذلك بفضله ورحمته وكرمه.

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة، -جامعة الفقه الإسلامي العالمية في ضوء القرآن والسنة-.

❷الخطباء: الدكتور ابراهيم الدويش.

❸طريق الإسلام.

❹دعلي الصلابي فضل عمر بن الخطاب.